تاريخ صلاة التراويح

في هذا المقال؛ سنقدم نبذة عن تاريخ صلاة التراويح ، الشعيرة المحببة إلى القلوب المؤمنة في شهر القرآن، فنروي باختصار كيف بدأت منذ فجر الإسلام، ونرى بعض ما اعتراها تاريخيا من مسحات اجتماعية كادت تخرجها من حيز العبادات (الدين) إلى دائرة العادات (التدين)، ونكشف جانبا من تأثرها بتاريخ المسلمين ومؤثراته المختلفة عقديا وفقهيا وسياسيا واجتماعيا، وكيف تعطلت أحيانا بعوامل مختلفة، ثم نعرض لذكر مشاهير من أعلام جمْعها أئمةً ومأمومين. وسنكتشف -أثناء ذلك كله- أن كثيرا من ممارساتنا المقترنة بهذه الشعيرة العظيمة لم تكن وليدة اليوم، بل ورثناها جيلاً عن جيل منذ حقب متطاولة.

مبادرة عُمَرية

ما هو أصل نشأة صلاة التراويح؟

يلخِّص لنا العلامة ابن المِبْرد الحنبلي (ت 909هـ/1503م) -في كتابه 'محض الصواب'- أصلَ نشأة صلاة التراويح في الإسلام بقوله: "لا يتوهَّمْ متوهِّمٌ أن التراويح من وضع عمر بن الخطاب (ت 23هـ/645م) -رضي الله عنه- ولا أنه أول من وضعها، بل كانت موضوعة من زمن النبي ﷺ، ولكن عمر.. أول من جمع الناس على قارئ واحد فيها، فإنهم كانوا يصلون لأنفسهم فجمعهم على قارئ واحد...، وسُمِّيت 'التراويح' [بهذا الاسم] لأنهم يستريحون فيها بعد كلّ أربع". وقبل ابن المِبْرد بستة قرون؛ حدد لنا الإمام الطبري (ت 310هـ/922م) تاريخ صدور أمْر عمر بجمع الناس لصلاة التراويح فقال -في تاريخه- إنه كان في سنة 14هـ/636م "وكتب بذلك إلى البلدان وأمرهم به". وقد خصص عمر قارئا للصلاة بالرجال وآخر للنساء؛ لكن يبدو أن أمهات المؤمنين لم يكنّ –نظرا لمكانتهن الخاصة- يشهدن تراويح النساء العامة، كما يُفهم ذلك من الأثر القائل إن "ذَكْوان (أبا عمْرو ت 63هـ/684م) مولى [السيدة أم المؤمنين] عائشة (ت 58هـ/679م) -رضي الله عنها- كان يؤمُّها في... صلاة التراويح [وهو يقرأ] في المصحف"؛ كما في رواية الإمام أبي القاسم الأصبهاني الملقب بقوام السُّنة (ت 535هـ/1140م) في 'سِيَر السلف الصالحين'.

وحفظت لنا كتب الفقه والتاريخ والتراجم أسماء القُرّاء الذين كلفهم عمر -في أوقات مختلفة- القيام بهذه المهمة؛ فذكرت من قُرّاء الرجال: أبيّ بن كعب الأنصاري (ت 22هـ/644م) الذي "كان يصلي بهم عشرين ركعة ثم يوتر بثلاث، وكان يخفف القراءة بقدر ما زاد من الركعات"؛ وفقا لابن تيمية (ت 728هـ/1328م) في 'مجموع الفتاوى'. ومن قُرّاء الرجال كذلك معاذ بن الحارث الأنصاري (ت 63هـ/684م). وأما قُرّاء النساء فهم: تميم بن أوس الداري (ت 40هـ/661م) الذي ورد أيضا أنه صلاها بالرجال، وكذلك سليمان ابن أبي حَثْمَة القرشي (ت بعد 43هـ/664م)، وعمرو بن حُرَيث المخزومي (ت 85هـ/705م).

أوليات وآراء

ومن الأوّليات المتعلقة بتاريخ التراويح استحداث استدارة الصفوف حول الكعبة؛ فأبو عُبيد البكري الأندلسي (ت 487هـ/1094م) يروي -في 'المسالك والممالك'- عن الإمام سفيان بن عيينة (ت 198هـ/814م) أن "أول من أدار الصفوف حول الكعبة عند قيام رمضان [والي مكة الأموي] خالد بن عبد الله القَسْري (ت 120هـ/739م)، وكان الناس يقومون في أعلى (= بداية) المسجد؛ [فـ]أمر.. الأئمةَ أن يتقدموا ويصلّوا خلف المقام، وأدار الصفوف حول الكعبة". وقد استقرّ حكم التراويح الفقهي -عند علماء أهل السُّنة- على أنها "سُنّة" لا "فَرْض"، وساقوها مثالا نموذجيا على "البدعة الحسنة" شرعا عند القائلين بها منهم؛ لكن بعض هؤلاء العلماء ذهب إلى أنه "لا يجوز تركها في المساجد... لكونها [صارت] شعارا [للمسلمين]، فتلحق بفرائض الكفايات أو السُّنن التي صارت شعارا... كصلاة العيد"؛ وفقا لخلاصة فقهية قررها الإمام تاج الدين السبكي (ت 771هـ/1370م) في 'طبقات الشافعية'. كما استحب العلماء -حسب الإمام أبي بكر البيهقي (ت 458هـ/1067م) في 'شُعَب الإيمان'- أن "يُزاد في شهر رمضان في أنوار المساجد" بتعليق المصابيح فيها؛ قائلين أيضا إن "أول من فعله عمر بن الخطاب لما جمع الناس في التراويح"؛ طبقا لمؤرخ المدينة المنورة نور الدين السمهودي (ت

أئمة مشاهير

تنوعت الطبقات والفئات الاجتماعية التي جاء منها أئمة التراويح عبر حقب التاريخ الإسلامي؛ فكان منهم أساطين العلماء والقراء الكبار، ومشاهير الرحالة والتجار، وحتى السلاطين بل والفراشون العاملون في المساجد. فقد تولى إمامتها "شيخ المفسرين" الإمام الطبري، و"شيخ المقرئين" في عصره أبو بكر ابن مجاهد البغدادي (ت 324هـ/936م)، و"شيخ الواعظين" الإمام ابن الجوزي (ت 597هـ/1201م). ويحكي الخطيب البغدادي (ت 463هـ/1072م) -في 'تاريخ بغداد'- أن ابن مجاهد هذا استمع ليلة إلى صوت معاصره وبلديِّه الطبري -وهو يؤم الناس في التراويح بمسجده ببغداد- فقال لأحد طلابه: "ما ظننت أن الله تعالى خلق بشرا يُحسن [أن] يقرأ هذه القراءة"!! ويذكر الإمام ابن عساكر (ت 571هـ/1175م) -في 'تاريخ دمشق'- أن شيخه المقرئ أبا الفتح الأنصاري المقدسي (ت 539هـ/1144م) كان "يصلي التراويح في مسجد علي بن الحسن" بدمشق. وهذا أبو جعفر ابن الفَنَكي الشافعي القرطبي (ت 596هـ/1200م) "كان الناس يتزاحمون على الصلاة خلفه التماسا لبركته واستماعا لحسن صوته، وحين مجاورته بمكة.. كان أحدَ المتناوبين في قراءة التراويح برمضان...، وقراءتُه تُرِقُّ الجماداتِ خشوعًا"؛ حسب ابن جبير الكناني الأندلسي (ت 614هـ/1217م) في رحلته. ومن أئمة التراويح الذين كان لهم شأن في التاريخ العلمي الإسلامي: شيخُ الإسلام ابن تيمية الحراني؛ فقد قال تلميذه المؤرخ ابن الوردي المعري الكِندي (ت 749هـ/1348م) أثناء ترجمته له في تاريخه: "وصليتُ خلفه التراويح في رمضان فرأيت على قراءته خشوعا، ورأيت على صلاته رقة حاشية تأخذ بمجامع القلوب".

صورة مقال

تنوُّع لافت

وكان من أئمتها أيضا الفقيه الرحالة الشهير المقدسي البشاري (ت 380هـ/991م)؛ فقد حدثنا -في رحلته- عن زيارته لليمن فقال إن أهل عدن "يختمون في رمضان في الصلاة ثم يدعون ويركعون، وصليتُ بهم التراويح بعدن فدعوت بعد السلام فتعجبوا من ذلك"!! ويبدو أن بعض أئمة التراويح كانوا من فئة العلماء التجار مثل أبي علي الهلالي الحوراني المقرئ التاجر (ت 546هـ/1151م)، والتاجر المكي الكبير الخواجا جمال الدين ابن الشيخ علي الجيلاني (ت 824هـ/1421م) الذي "حفظ القرآن الكريم وصلى به التراويح في مقام الحنفية [بالحرم المكي] سنة ست عشرة وثمانمئة". ومن أئمتها الفرّاشين أحمد بن عبد الله الدُّوري المكي (ت 819هـ/1416م) "الفراش بالحرم الشريف [بمكة]، وكان يصلي بالناس صلاة التراويح في رمضان". ومن الأمراء العلماء الذين احتفظ لنا التاريخ بذكرهم في سجلّ أئمة التراويح: السلطان عالَمْكير أورَنْكْزيب (ت 1118هـ/1706م) الذي حكم الهند 50 سنة، وُصف خلالها بأنه "وليس له في عصره من الملوك نظير في حسن السيرة"؛ وفقا لمعاصره المؤرخ المحبِّي الدمشقي (ت 1111هـ/1699م) في 'خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر'. ويضيف أن أورَنْكْزيب كان "مع سعة سلطانه يأكل في شهر رمضان رغيفا من خبز الشعير من كسب يمينه، ويصلي بالناس التراويح، وله نِعَمٌ بارَّةٌ وخيرات دارَّةٌ جدا". ومن أغرب قصص مشاهير "أئمتها" ما أورده المؤرخ صلاح الدين الصفدي (ت 764هـ/1363م) من أن الحبر اليهودي الكبير موسى بن ميمون (ت 601هـ/1204م) القرطبي "أسلم بالمغرب [مُكْرَهاً أيامَ دولة الموحدين] وحفظ القرآن واشتغل بالفقه؛ ولما قدم [بحراً إلى فلسطين سنة 560هـ/1165م] من الغرب صلى بمَن في المركب التراويح في شهر رمضان" حين أدركهم أثناء رحلتهم. ثم سرعان ما انتقل ابن ميمون هذا من فلسطين إلى مصر،

ونجد بعض أئمتها من يخصص ختمة لكل عشر ليال من رمضان؛ فقد أخبرنا المؤرخ الأندلسي ابن بَشْكُوَالَ (ت 578هـ/1182م) -في كتابه 'الصِّلَة'- أن أبا القاسم خَلَف بن يحيى الفهري الطليطلي (ت 405هـ/1015م) "كان سكناه بالنَّشارين (= حيّ النجّارين)، وهو إمام 'مسجد اليتيم' بقرطبة...، [و]كان يقوم في مسجده في رمضان بتسعة أشفاع (= 18 ركعة) على مذهب مالك، ويختم فيه ثلاث ختمات: الأولى ليلة عشر، والثانية ليلة عشرين، والثالثة ليلة تسع وعشرين". وقد اعتاد كثير من أئمة التراويح صلاتها بالقراءات السبع وأحيانا العشر؛ ومنهم أبو علي الهلالي الحوراني -المتقدم ذكْرُه عند ابن عساكر في 'تاريخ دمشق'- الذي "كان يصلي بجامع دمشق... صلاة التراويح ويقرأ فيها بعدة روايات يخلطها، ويردد الحرف (= اللفظ) المختلَف فيه" بين القرّاء. ويقول الإمام الذهبي (ت 748هـ/1347م) -في 'تاريخ الإسلام'- إن أبا العباس البَرَداني البغدادي الضرير (ت 621هـ/1224م) "كان يقرأ في التراويح بالشواذّ رغبة في الشُّهرة"، وكذلك المقرئ محمد بن أحمد المقدسي الشافعي (ت 885هـ/1480م) الذي "صلى للناس التراويح في رمضان بالقرآن بتمامه، كل عُشر منه [بقراءة] إمام من [القراء] العَشرة"؛ حسب الإمام السخاوي (ت 902هـ/1496م) في 'الضوء اللامع'. ومن مشاهير أئمتها الذين مكثوا عشرات السنين وهم يؤمون الناس فيها أبو علي الحسن بن داود القرشي الأموي الكوفي (ت 352هـ/963م)، فقد كان "صاحب ألحان، صلى بالناس التراويح في جامع الكوفة ثلاثا وأربعين سنة"؛ كما يخبرنا عنه المؤرخ تاج الدين ابن أنجب السَّاعي (ت 674هـ/1275م) في 'الدر الثمين في أسماء المصنفين'. وكذلك أبو عبد الله النيسابوري المُزكِّي (ت 392هـ/1001م) الذي يفيدنا الذهبي -في 'تاريخ الإسلام'- بأنه "صلى بالناس التراويح ثلاثا وستين سنة بالختمة". ومثله كريم الدين أبو جعفر العباسي الخطيب (ت 574هـ/1178م) الذي "خطب بجامع القصر [في بغداد] وصلى التراويح نحوا من خمسين سنة"؛ حسب كمال الدين ابن الفُوَطي الشيباني (ت 723هـ/1323م) في 'مجمع الآداب في معجم الألقاب'.

تراويح الخاصة

كان من العادات الاجتماعية المرتبطة برمضان انتقاءُ أئمة مميزين -متانةَ حفظٍ وجودةَ أداءٍ وجمالَ صوتٍ- ليصلّوا التراويح بالسلاطين وذوي المكانة الاجتماعية. ومن أمثلة ذلك ما أورده الإمام الذهبي -في 'سِيَر أعلام النبلاء'- من أن الخليفة العباسي "المستظهر بالله (ت 512هـ/1118م) طلب مَن يصلي به...؛ فوقع اختياره على القاضي.. ابن الدواس...؛ [و] من كثرة إعجابه به كان أول رمضان قد شرع في التراويح فقرأ في الركعتين الأوليين آية آية، فلما سلم قال له المستظهر: زدنا من التلاوة! فتلا آيتين آيتين، فقال له: زدنا! فلم يزل [يستزيده] حتى كان يقوم كل ليلة بجزء" من القرآن. كما كان المقرئ أبو الخطاب الكاتب الشافعي البغدادي (ت 497هـ/1104م) "يصلي بأمير المؤمنين المستظهر باللَّه التراويح"؛ طبقا للذهبي -في 'تاريخ الإسلام'. ويفيدنا الحافظ ابن عساكر بأن زين القضاة سلطان بن يحيى القرشي الدمشقي (ت 530هـ/1136م) "صلّى التراويح بـ[المدرسة] النِّظامية [ببغداد]... وخلع عليه الخليفة" العباسي. وجاء في 'ذيل طبقات الحنابلة' للإمام ابن رجب الحنبلي (ت 795هـ/1393م) أن المقرئ أبا القاسم هبة الله بن الحسن الأشقر البغدادي (ت 634هـ/1237م) كان "يؤم بالخليفة الظاهر (العباسي ت 623هـ/1226م)، ورتّبه إماما.. في صلاة التراويح، وأذِن للناس في الدخول للصلاة" معهم بمسجد قصر الخليفة في بغداد. وفي الأندلس؛ يترجم ابن عبد الملك المراكشي (ت 703هـ/1303م) -في 'الذيل والتكملة'- لابن مُقاتل القَيسي الغرناطي (ت 574هـ/1178م)؛ فيقول إنه كان "حافظا لكتاب الله تعالى، ضابطا لوجوه قراءاته، طيّب النغمة به...، مختارا للإمامة في التراويح بمسجد غرناطة الأعظم". ويقول المراكشي أيضا أن سلطان دولة الموحِّدين المنصور يعقوب بن يوسف (ت 595هـ/1199م) استمع ذات يوم إلى تلاوة المقرئ أبي الحسن الفهمي القرطبي (ت 617هـ/1220م) "فأخذ بقلبه طِيبُ نغمته وحُسن إيراده، فقرّبه واستخلصه، وأمره بتعليم أولاده وقراءة حزب من التراويح في رمضان". وكان أبو بكر الأنصاري القرطبي (ت 614هـ/1217م) "حسن الصوت، يستدعيه الأمير لصلاة التراويح"؛ وفقا للذهبي في 'تاريخ الإسلام'. ووُصف أبو الحسن ابن واجِب القيسي البلنسي (ت 637هـ/1239م) بأنه "من أحسن الناس صوتا بالقرآن، ولذلك كان يُعيَّن لصلاة التراويح بالوُلاة".

أئمة للأئمة

وأورد قاضي القضاة المؤرخ ابن خلكان (ت 681هـ/1282م) -في 'وفيات الأعيان'- أن الوزير الأيوبي صفي الدين بن شكر الدميري (ت 630هـ/1233م) "أراد قارئا للمدرسة التي أنشأها بالقاهرة المعزية يصلي بها التراويح، فاختير له شخصان اسم أحدهما زيادة والآخر مرتضى". وحتى كبار العلماء كانوا يختارون أحيانا غيرهم ليؤمهم في التراويح؛ فقد قال عمر بن سليمان أبو حفص المؤدب (ت بعد 250هـ/864م): "صليتُ مع أحمد بن حنبل (ت 241هـ/855م) في شهر رمضان التراويح وكان يصلي به ابن عُمير"؛ كما في 'طبقات الحنابلة' لابن أبي يَعْلَى الحنبلي (ت 526هـ/1132م). وترجم السخاوي -في 'الضوء اللامع'- للمقرئ بدر الدين بن تَقِيّ القباني (ت 844هـ/1440م) فقال إنه "كان يؤم شيخَنا [الحافظَ ابنَ حجر العسقلاني] في التراويح بالمدرسة المَنْكُوتَمُرية [في القاهرة] إلى أن مات". وذكر الخطيب البغدادي أن الإمام القَعْنَبي (ت 221هـ/836م) -وهو أحد كبار رواة 'الموطأ' عن الإمام مالك بن أنس (ت 179هـ/795م)- كان من تلامذته ابن عباد النسائي المعروف بالجلاجلي (ت 287هـ/900م) فـ"قدَّمه [إماما] في صلاة التراويح فأعجبه صوته". وفي المقابل؛ كان بعض أجلاء الأئمة يفضلون صلاتها بأنفسهم وفي بيوتهم، فقد "كان الشافعي (ت 204هـ/819م) لا يصلي مع الناس التراويح [في المسجد]، ولكنه كان يصلي في بيته ويختم في رمضان ستين ختمة"!!

أصوات مرغوبة

لطالما كان حسن الصوت أحد معايير الترجيح بين أئمة التراويح عند تعددهم في البلد أو الحي الواحد؛ بل إن شرف الدين بن يحيى الحمزي المعروف بكِبْرِيت المولوي (ت 1070هـ/1659م) يقول -في كتابه 'رحلة الشتاء والصيف'- إن "من محاسن الشام إحياء ليالي رمضان المعظم، وإقامة التراويح بأحسن أداء يورث النشاط، فإن المكبرين يلوّنون في التكبير بالأصوات الحسنة، فيبتدئون بمقام العراق ويختمون بمقام العشاق"!! ومن أئمة التراويح المقصودين قديما لحسن أصواتهم أو جمال أدئهم في القراءات: المقرئُ أبو البركات بن العسّال الحنبلي (ت 509هـ/1115م) الذي "كان من القراء المجوّدين، الموصوفين بحُسن الأداء، وطيب النغمة، يُقصد في رمضان -لسماع قراءته في صلاة التراويح- من الأماكن البعيدة" في بغداد؛ حسب ابن رجب الحنبلي في 'ذيل طبقات الحنابلة'. ومنهم كذلك أحمد بن حمدي أبو المظفر المقرئ (ت 576هـ/1180م) الذي "كان من القراء المجوّدين... بالقراءات الكثيرة...، وأَمَّ.. بمسجد ابْن جردة [في بغداد]، وكان الناس يقصدونه ويسمعون قراءته في التراويح"؛ كما يرويه الخطيب البغدادي في 'تاريخ بغداد'. وترجم الحافظ ابن حجر العسقلاني -في 'الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة'- لشمس الدّين الزرعي ابن البصّال المقرئ (ت 738هـ/1338م) "كان حسن الصوت جدا، وكان الناس يقصدونه للصلاة خلفه في التراويح ويزدحمون" في مسجده. وكان المقرئ محمد بن علي الشِّيرَجي المكي (ت 827هـ/1424م) "حسن الصوت بالقراءة، وحين كان يصلي التراويح بالمسجد الحرام كان الجمعُ يَكْثُر لسماع قراءته"؛ وفقا لمؤرخ مكة المكرمة تقي الدين الفاسي المكي (ت 832هـ/1429م) في 'العِقد الثمين في تاريخ البلد الأمين'.

نغمات ساحرة

ويحدثنا المقريزي أن إمام "المدرسة البَقَرية" بالقاهرة زين الدين أبا بكر النحوي (ت بعد 746هـ/1345م) "كان الناس يرحلون إليه في شهر رمضان لسماع قراءته في صلاة التراويح لشجا صوته، وطيب نغمته، وحسن أدائه، ومعرفته بالقراءات السبع والعشر والشواذ". ويقول المؤرخ السخاوي -في 'الضوء اللامع'- إن ناصر الدين أبا الخير محمد بن أحمد الخزرجي الأخمِيمي الحنفي (ت بعد 891هـ/1486م) "أَمَّ في التراويح بجامع الحاكم [بالقاهرة] وغيره.. وتزاحم الناس لسماعه والصلاة خلفه". كما يخبرنا بأن أحمد بن محمد البُلْقِيني الشافعي القاهري (ت 838هـ/1435م) "كان حسن الصوت بالقرآن جدا، فكان الناس يهرعون إلى سماعه -سيما في قيام رمضان- من الأماكن النائية، بحيث يضيق الشارع بهم". ويبدو أن أئمة التراويح ذوي الأصوات المُطرِبة أغْرَوْا -بحسن تغنّيهم بالقرآن- الجماهيرَ حتى من غير المسلمين، كما نجده -لدى الخطيب البغدادي- في قصة الإمام علي بن عبد الله البَرَداني (ت بعد 375هـ/984م) الذي "كان يلقب 'مصطبانس'"، فسأله أحدهم عن مصدر لقبه الغريب هذا فأجابه: "كنت أصلي بقوم التراويح في شهر رمضان فسمع قراءتي قوم من النصارى، فاستحسنوها وقالوا: كأن قراءة هذا الرجل قراءة مصطبانس! يشيرون إِلَى قسّ لهم، فلقبني الناس بذلك"!! ولم يكن حسن الصوت وحده عامل مفاضلة بين أئمة التراويح؛ بل ربما كان تخفيف أحدهم في تراويحه محبَّبا لدى طوائف من المصلين، ومن ذلك أن أحمد بن عبد الله الدُّوري المكي (ت 819هـ/1416م) "كان يصلي بالناس [في الحرم المكي] صلاة

أشرنا سابقا للخلاف الطائفي في مدى شرعية التراويح؛ ولكن المنع السياسي لإقامتها المؤيد بقوة السلطان كان أقوى تأثيرا من تلك الآراء الفِرَقية التي ظلت محدودة الانتشار زمانا ومكانا؛ فقد عُرف الفاطميون –وهم مؤسسو دولة الشيعة الإسماعيلية- بمنع صلاة التراويح في حقب من تاريخ حكمهم الذي شمل الغرب الإسلامي ومصر والشام والحجاز. فقد خاطب الفاطميون أتباعهم -وهم ما زالوا في طور التنظيم قبل تأسيس الدولة- قائلين لهم عند حلول أول رمضان بعد انطلاق دعوتهم في بلاد تونس: "إن رمضان قد جاء، ومذهبنا ألا تُصلَّى التراويح لأنها ليست من سنة النبي ﷺ وإنما سنّها عمر، ونحن نطوِّل القراءةَ في صلاة العشاء الأخيرة ونقرأ بالسُّور الطوال، فيكون ذلك عوضا عن التراويح"؛ حسبما يرويه ابن عِذاري المراكشي (ت بعد 712هـ/1312م) في 'البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمَغرب'. ويخبرنا سبط ابن الجوزي (ت 654هـ/1256م) -في 'مرآة الزمان'- أن خليفة الفاطميين المنصور إسماعيل بن القائم بأمر الله (ت 334هـ/946م) خالف سيرة أبيه وجدِّه في الحكم فـ"أقام التراويح والسُّنن" في تونس قبل مقدم خليفتهم منها إلى مصر سنة 362هـ/973م. وأفاد المؤرخ ابن سعيد الأنطاكي (ت 458هـ/1067م) -في تاريخه- بأنه في سنة 370هـ/981م مَنَع خليفة الفاطميين الثاني بمصر العزيزُ بالله (ت 386هـ/997م) صلاةَ التراويح بمصر فـ"عظُم ذلك على كافة أهل السُّنة من المسلمين". لكن خلَفه الحاكم بأمر الله (ت بعد 411هـ/1021م) سمح بإقامتها مؤقتا ثم منعها عشر سنوات حتى كانت عقوبة من يصليها الإعدام؛ فقد قال المقريزي -في 'اتعاظ الحنفا'- إنه في سنة 399هـ/1011م أمر الحاكم بـ"قتل رجاء بن أبي الحسين (ت 399هـ/1010م) من أجل أنه صلى صلاة التراويح في شهر رمضان". وفي المسجد الأقصى بالقدس ضُرب الشيخ الصالح أبو القاسم الواسطي (ت القرن 4-5هـ/الـ10-الـ11م) حتى أوشك على الهلاك لأنه اعترض على "أمر السلطان [الفاطمي] بقطع صلاة التراويح"؛ طبقا لابن عساكر. ثم سمح الحاكم الفاطمي بإقامة التراويح في المساجد مرة أخرى سنة 408هـ/1018م، وأصدر بذلك قرارا رسميا قرئ في مساجد مصر وغيرها فاستمرت إقامتها حتى وفاته؛ وكانت دوامة المنع والإذن تلك للتراويح من أمثلة قرارات الحاكم المزاجية التي عُرف بها عهده المتقلب المواقف والقرارات.

دوافع متعددة

وفي الجناح الشرقي من الخلافة العباسية؛ منع "الحشاشون" -وهم فصيل من الشيعة الإسماعيلية منشق عن الدولة الفاطمية الأمّ بمصر- صلاة التراويح بالمناطق التي سيطروا عليها في فارس وخراسان، ثم سمحوا بإقامتها في نهاية عمر كيانهم هناك. فقد ذكر المؤرخ ابن تَغْرِي بَرْدي (ت 874هـ/1469م) -في 'النجوم الزاهرة'- أنه في سنة 608هـ/1211م "قدِم بغدادَ رسولُ جلال الدين حسن (ت 618هـ/1221م) صاحب [قلعة] ألَمُوتْ يخبر الخليفة [الناصر العباسي (ت 622هـ/1225م)] بأنهم تبرؤوا من الباطنية، وبنوا الجوامع والمساجد...، وصلّوا التراويح في شهر رمضان؛ فسُرَّ الخليفة والناس بذلك". وربما كان تدخل السلطة في شعائر العبادات بالمساجد -ومنها التراويح- نتيجة لحسابات الصراع السياسي مع الخصوم الإقليميين أكثر من كونه اقتناعا حقيقيا باختيار مذهبي معين؛ فالإمام الذهبي يخبرنا -في 'تاريخ الإسلام'- أنه "في رمضان [سنة 494هـ/1101م] أمر المستظهر باللَّه بفتح جامع القصر [ببغداد]، وأن تصلى فيه التراويح، وأن يجهر بالبسملة، ولم تَجْرِ بهذا عادة؛ وإنّما تركوا (= العباسيون) الجهر بالبسملة في جوامع بغداد مخالفةً للشّيعة [الفاطميين] أصحاب مصر". ولم تكن القرارات السياسية المدفوعة بالتحيزات المذهبية هي الوحيدة التي تعطلت بسببها التراويح؛ إذ ترصد كتب التاريخ بعض الأزمات العامة من جوائح الأوبئة أو الحروب التي تزامن وقوعها ببعض البلدان الإسلامية مع حلول رمضان، فتوقفت جراءها صلوات الجماعة -بما فيها التراويح- كليا أو جزئيا. فقد أورد ابن الجوزي -في أحداث سنة 439هـ/1048م- أنه "في رمضان غلا السعر ببغداد، وورد كتاب من الموصل أن الغلاء اشتد بها حتى أكلوا الميتة، وكثر الموت حتى إنه أحصِي جميع من صلى الجمعة فكانوا أربعمئة. وإذا تعطلت الجمعة في رمضان -وهي شعيرة واجبة الأداء نصًّا وإجماعا- فمن باب أولى أن يتوقف المصلون عن إقامة التراويح وهي نافلة. وفي الغرب الإسلامي يقدم لنا المؤرخ المغربي أبو العباس الناصري (ت 1315هـ/1897م) -في كتابه 'الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى'- نصا صريحا في تعطل التراويح بسبب الاضطراب الأمني؛ فيقول إنه "لما قُتل السلطان عبد الملك بن زيدان (السّعدي سلطان المغرب ت 1040هـ/1629م).. بُويع أخوه الوليد بن زيدان (ت 1045هـ/1634م)...، وعظُمت الفتن بفاس حتى عُطلت الجمعة والتراويح من جامع القرويين مدة، ولم يصلِّ به ليلةَ القدر إلا رجل واحد من شدة الهول والحروب"!!

محاريب متعددة

الحنابلة مقابل الحَجَر الأسْود"؛ طبقا لوصف مُجير الدين العُلَيْمي الحنبلي (ت 928هـ/1522م) في كتابه 'الأنس الجليل'. وهي عادة بدأ العمل بها على الأقل منذ سنة 497هـ/1104م، ولم تختفِ إلا بعد إكمال آل سعود سيطرتهم على الحجاز سنة 1344هـ/1923م؛ ففي سنة 497هـ/1104م حج الإمام أبو طاهر السِّلَفي (ت 576هـ/1180م) فوصف تعدد محاريب المذاهب في الحرم المكي وكيف يكون ترتيبهم في أداء الصلوات، وقال إن إمام الشافعية هو "أول من يصلي من أئمة الحرم.. قبل المالكية والحنفية والزيدية"؛ طبقا للفاسي في 'شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام'. وبعد قرون من شهادة السِّلَفي؛ تحدث مؤرخ المدينة المنورة السمهودي عن تقليد تعدد المحاريب المذهبية وانتشاره في الأقطار، فقال إن حدوثه في المدينة النبوية كان -في منشئه- بسعي من الفقيه الحنفي طُوغان شيخ المحمدي (ت 881هـ/1476م) "فبرزت المراسيم [السلطانية] به بعد الستين وثمانمئة (860هـ/1456م)"، مشيرا إلى أن "هذا الأمر دَبّ إلى المدينة الشريفة من مكة المشرفة". ويصور لنا ابن جبير -في رحلته- مظاهر الاحتفال برمضان في مكة كما شاهدها؛ فيقول إنه لما دخل رمضان سنة 579هـ/1183م "وقع الاحتفال في المسجد الحرام لهذا الشهر المبارك.. حتى تلألأ الحرم نورا وسطع ضياءً، وتفرقت الأئمة لإقامة التراويح فِرَقاً (حسب المذهب الفقهي).. كل فرقة منها قد نصبت إماما لها في ناحية من نواحي المسجد...، وكاد لا يبقى في المسجد زاوية ولا ناحية إلا وفيها قارئ يصلي بجماعة خلفه، فيرتجّ المسجد لأصوات القراءة من كل ناحية". وقد يتعدد أئمة تراويح المذهب الفقهي الواحد، فالمالكية مثلا قال إنها "اجتمعت على ثلاثة قراء يتناوبون القراءة"! ومن الحرم المكي انتقل تعدد المحاريب إلى المسجد الأقصى وغيره، إذْ "جرى مثله في بيت المقدس وجامع مصر"؛ وفقا للسمهودي. كما انتقل هذا التعدد أيضا إلى مسجد الخليل -عليه السلام- في فلسطين؛ حسب العُلَيْمي الحنبلي في 'الأنس الجليل'.

ضبط تنظيمي

ويبدو أن بروز هذه الظاهرة في الأقصى -فيما يخص التراويح تحديدا- لم يتأخر كثيرا عن تاريخ ظهورها في الحرم المكي إن لم يكن مزامنا له، بدليل أن الإمام ابن العربي المالكي (ت 543هـ/1148م) شاهد هذا الأمر في الأقصى حين زاره أواخر ثمانينيات القرن الخامس الهجري/الـ11 الميلادي. يقول ابن العربي في تفسيره 'أحكام القرآن': "وقد رأيت على باب الأسباط -فيما يقرب منه- إماما من جملة الثمانية والعشرين إماما، كان فيه يصلي التراويح في رمضان بالأتراك، فيقرأ في كل ركعة بالحمد لله وقل هو الله أحد، حتى يتم التراويح؛ تخفيفا عليهم ورغبة في فضلها". كما يحدثنا الرحالة الأندلسي القاضي أبو البقاء البَلَوي (ت بعد 767هـ/1365م) عن مشاهداته الرمضانية في "المسجد الأقصى... أعظم مساجد الدنيا" حين زاره في رحلته إلى المشرق، ويصف كثرة جماعات التراويح فيه؛ فيقول: "ولقد عددت مواضع الإشفاع وصلاة التراويح بها في شهر رمضان المعظم فألفينا نحو الأربعين موضعا"!! وأحيانا تتدخل السلطات لتنظيم "فوضى" التراويح المتعددة في المسجد الواحد، وما ينتج عن هذا التعدد من تداخل لأصوات الأئمة المقرئين وتشويش على المصلين المستمعين. ولذا يذكر الإمام ابن كثير (ت 774هـ/1372م) -في 'البداية والنهاية'- أنه كان في الجامع الأموي بدمشق محاريب متعددة للمذاهب الأربعة، ولكن في زمنه تدخلت السلطة لتوحيدهم "في صلاة التراويح، [فـ]اجتمع الناس على قارئ واحد وهو الإمام الكبير في المحراب المقدَّم عند المنبر"، كما يشير إلى واقعة تدخُّل أخرى للسلطة سبقت تلك بأكثر من قرن سنة 635هـ/1237م. وجاء في كتاب 'مفاكهة الخلان' لشمس الدين ابن طولون الدمشقي (ت 953هـ/1546م) أنه في رمضان سنة 926هـ/1520م أمر حاكم دمشق العثماني "إمامَ الحنفية بالجامع الأموي... بأن يتروّح (= يصلي التراويح) بالمقصورة ليلة... و[يصليها الإمام] الشافعي ليلة، وفُعل ذلك وتركت التراويح بمحراب الحنفية، ولم يسهل ذلك على متعصبي الشافعية" الذين لم يتقبلوا القرار بأريحية.

إمامة الصبيان

ما حكم إمامة الصبيان لصلاة التراويح؟

ومن الأمور الطريفة التي اقترنت -على مدى قرون- بشهر رمضان "إمامة الصبيان" للتراويح في بعض جوامع الحواضر الكبرى وفي الحرم المكي خاصة؛ رغم أنه وقع "في صلاة التراويح خَلْفَ الصبيان اختلافٌ" بين العلماء في صحتها؛ كما يقول ابن الضياء الحنفي (ت 854هـ/1450م) في 'تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام'. ومن أقدم نماذج ذلك تاريخيا ما ذكره الرحالة المقدسي من أن أهل شيراز "يصلون التراويح... ويقدّمون فيها الصبيان"، وما قاله ابن الجوزي (ت 595هـ/1199م) -في 'المنتظم'- عن اختيار سلطان البويهيين ببغداد في سنة 395هـ/1006م كلا من أبي الحسين بن الرَّفَّاء وأبي عبد الله بن الزجاجي وأبي عبد الله بن البهلول -وكانوا "من أحسن الناس قراءة"- ليكونوا أئمة رسميين "لصلاة التراويح.. وهم أحداث (= غير بالغين)، وكانوا يتناوبون الصلاة.. ورغب [الناسُ] لأجلهم في صلاة التراويح". وقد أصبح عادةً في الحجاز ومصر أن يَؤُمَّ الطفلُ الناسَ في التراويح إذا أكمل حفظ القرآن وأتم اثنتيْ عشرة سنة من عمره، ولذلك نجد في 'رحلة ابن جبير' معلومات وافرة عن إمامة الصبيان في التراويح بالحرم المكي والاحتفالات المصاحبة لها، والتي جعلت بعضهم يقرّر أن من "محاسن الإسلام: يوم الجمعة ببغداد وصلاة التراويح بمكة"؛ وفقا للقاضي أبي علي التنوخي (ت 384هـ/995م) في 'نشوار المحاضرة'.

فقد ذكر ابن جبير أن "ليلة إحدى وعشرين خَتم فيها أحد أبناء أهل مكة...؛ فلما فرغوا منها قام الصبي فيهم خطيبا، ثم استدعاهم أبو الصبي المذكور إلى [وليمة في] منزله.. ثم بعد ذلك ليلة ثلاث وعشرين، وكان المختتِم فيها أحد أبناء المكيين ذوي اليسار غلاما لم يبلغ سنه الخمس عشرة سنة...، وحضر الإمامُ الطفلُ فصلى التراويح وختم، وقد انحشد أهل المسجد الحرام إليه رجالا ونساء، وهو في محرابه". وامتدت عادة إمامة الأطفال في تراويح الحرم إلى عصر الرحالة ابن بطوطة (ت 779هـ/1377م) وما بعده؛ إذ يخبرنا -في رحلته- أن لكل مذهب فقهي محرابا خاصا بأصحابه، وأنهم "في كل ليلة وتر من ليالي العشر الأواخر من رمضان يختمون القرآن، ويحضر الختم القاضي والفقهاء والكبراء، ويكون الذي يختم بهم أحد أبناء كبراء أهل مكة؛ فإذا ختم نُصب له منبر مزين بالحرير وأوقد الشمع وخطب، فإذا فرغ من خطبته استدعى أبوه الناس إلى منزله فأطعمهم الأطعمة الكثيرة والحلاوات". وورد في ترجمة القاضي الشافعي جلال الدين البُلْقِيني (ت 824هـ/1421م) أنه "حفظ القرآن وصلى به التراويح وهو صغير"؛ حسبما في 'رفع الإصْر عن قضاة مصر' لابن حجر. كما أن الإمام ابن حجر نفسه أمَّ الناس في التراويح بالحرم المكي وعمره اثنتا عشرة سنة عام 785هـ/1383م "على جاري العادة" في مَن يُكمل حفظ القرآن من الأطفال؛ طبقا للسخاوي في 'الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر'. ويذكر السخاوي أن شيخه ابن حجر بعد أن صار إماما عظيما "حضر ليلةً من ليالي رمضان بجامع الحاكم للصلاة خلف ابن الكُويز، إذ صلّى للناس التراويح عقب ختمه القرآن على جاري عادة الأولاد". بل إن الفاسي يفيدنا -في 'العقد الثمين'- بأن قاضي مكة ومفتيها محب الدين بن ظهيرة (ت 827هـ/1424م) "حفظ القرآن الكريم... وصلى التراويح في سنة تسع وتسعين وسبعمئة (799هـ/1397م)"، وعمره حينها عشر سنوات فقط لكونه وُلد عام 789هـ/1387م.

مقادير ومؤلفات

أما مقادير ركعات التراويح تاريخيا فإنها اختلفت وفقا لاختيارات المذاهب الفقهية؛ وإذا أخذنا بما استقر عليه الأمر في الحرمين الشريفين فسنجد أن عدد ركعاتها ظل مختلفا فيهما طوال أكثر من ألف سنة، ولم يتّحد الأمر فيهما حتى منتصف القرن الرابع عشر الهجري في ظل الحكم السعودي. فقد كان المكيون -وفقا لابن بطوطة- يصلون "التراويح المعتادة وهي عشرون ركعة" ثم يتبعونها بركعات الوتر الثلاث، وأما المدنيون فقد عزا النووي -حسبما ينقله عنه السمهودي في 'وفاء الوفاء'- إلى الإمام الشافعي قوله: "رأيت أهل المدينة يقومون بتسع وثلاثين ركعة، منها ثلاث للوتر". ويفيدنا السخاوي -في 'التحفة اللطيفة'- بأنه في أواخر القرن الثامن الهجري/الـ14 الميلادي كان المحدّث الحافظ زين الدين عبد الرحيم العراقي الكردي (ت 806هـ/1403م) من مدرسي الحرم النبوي في المدينة، وعلى يديه تغير عُرف المدنيين في عدد ركعات التراويح؛ إذ كان "يصلي التراويح بالناس عقب صلاة العشاء عشرين ركعة ويوتر بثلاث، فإذا كان آخر الليل صلى بالناس ست عشرة ركعة. واقتدى به في ذلك الأئمة بالحرم النبوي". أما مقدار التراويح في مساجد مصر فقد تراوح بين الاختيار الفقهي المذهبي الحرّ والتحديد الحكومي الرسمي الملزِم؛ وفي ذلك يقول المقريزي في 'المواعظ والاعتبار': "ولم يزل أهل مصر يصلونها ستًّا (= 6 ترويحات:

هذا وقد بينت كتب الفقه العامة وشروح الحديث النبوي أحكام صلاة التراويح ومقاديرها، كما أفردها بعض العلماء بمؤلفات خاصة بها يبدو أن أغلبها لم يصلنا منه إلا عنوانه. ومن تلك المصنفات: كتاب "فضل التراويح" للحافظ أبي بكر محمد بن الحسن النقاش (ت 351هـ/962م)؛ و"كتاب التراويح" للإمام حسام الدين الشهيد (ت 536هـ/1141م)؛ و"كتاب التراويح" لمفتي خوارزم أبي العباس أَحْمد بن إِسْمَعِيل التُّمُرْتَاشِيّ الحنفي (ت قرابة 600هـ/1203م). ومن هذه المؤلفات أيضا: كتاب "صلاة التراويح" للمحدّث ابن عبد الهادي الجمّاعيلي الحنبلي (ت 744هـ/1343م)؛ و"ضوء المصابيح في صلاة التراويح" و"إشراق المصابيح في صلاة التراويح" كلاهما لقاضي القضاة تقي الدين السبكي الشافعي (ت 756هـ/1355م)؛ و"إقامة البرهان على كميّة التراويح في رمضان" لأبي الضياء الغيثي الشافعي (ت 975هـ/1567م).

احتفاء واسع

هكذا إذن على مدى التاريخ الإسلامي؛ ظل اهتمام المسلمين بصلاة التراويح عظيما وشاملا باعتبارها أبرز ملامح احتفائهم برمضان، إذ أقبلت على تفيُّؤ ظلال إيمانياتها كافة الفئات والشرائح في المجتمعات المسلمة رجالا ونساء وأطفالا، حتى إن الرحالة ابن بطوطة يحدثنا عن "سوق المغنين" في الهند فيقول إن فيه مساجد، وإن "النساء المغنيات الساكنات هناك يصلين التراويح في شهر رمضان بتلك المساجد مجتمعات، ويَؤُمُّ بهن الأئمة وعددُهن كثير، وكذلك الرجال المغنّون"!! وفي كتابه 'المواعظ والاعتبار' يصف المقريزي "سوق الشمّاعين" بالقاهرة المملوكية، وما كان يشهده من رواجٍ كبير لمعروضات بضائعه من الشموع والقناديل في ليالي رمضان؛ فيذكر أنه "كان به في شهر رمضان موسم عظيم لكثرة ما يُشْتَرَى ويُكْتَرَى من الشموع الموكبية.... برسم ركوب الصبيان لصلاة التراويح، فيمرّ في ليالي شهر رمضان من ذلك ما يعجز البليغ عن حكاية وصفه"! كما يروي لنا أبو البركات السويدي البغدادي (ت 1174هـ/1760م) -في 'النفحة المسكية في الرحلة المكية'- ذكرياته الرمضانية في دمشق حين زارها؛ فيقول واصفا صلاة التراويح بالجامع الأموي وما كان يرافقها من حفاوة اجتماعية تصل حد الضجيج: "ومن عجيب أمرهم أن النساء يختلطن بالرجال... وقتَ التراويح، ومرةً صليتُ التراويح في [الجامع] الأموي فرأيت الناس جلوسا بين الصفوف يتحدثون، والأولاد لهم صياح وعياط ولعب بحيث يشوشون على المصلين"!! على أن إقامة التراويح لم تخلُ أحيانا من منغِّصات أدهى وأمرّ من صخب الأطفال وصراخهم في فضائها الروحاني المهيب؛ فمؤرخ يوميات دمشق شهاب الدين البديري (ت 1175هـ/1761م) يسجّل -في كتابه 'حوادث دمشق اليومية'- أنه في يوم "الاثنين [من سنة 1173هـ/1759م] ثبت رمضان المبارك، وثالث ليلة منه -والناس في صلاة التراويح- صارت زلزلةٌ مزعجةٌ، فقطعت الناس صلاة التراويح، وتهاربت الناس وداست بعضها بعضا، وانذهلت عقولهم"!! ولئن كان للفواجع نصيبها من تعكير صفو الجموع المحتشدة للتراويح؛ فقد أخذ الشعراء قسطهم من التوظيف الأدبي الظريف في تلك المناسبات، ومن ذلك ما يحكيه المحدِّث قطب الدين اليُونِيني (ت 726هـ/1326م) -في 'ذيل مرآة الزمان'- من أن الشاعر جمال الدين المصري المعروف بابن الجزّار (ت 679هـ/1278م) "بات ليلة في شهر رمضان عند الصاحب بهاء الدين أحمد بن حنّا (الوزير المملوكي ت 677هـ/1278م)..، فصلى عنده التراويح وقرأ الإمام في تلك الليلة سورة الأنعام في ركعة واحدة! فقال [ابنُ الجزار]:

ما لي على "الأنعامِ" من قدرة لا سيما في ركـــعة واحـــدة
فلا تسوموني حضـــوراً سوى في ليـلة "الأنفال" و"المـائدة"!